الفصل الرابع

ما الأدلة على أن التوحيد أهم من السياسة ومن أي أمر آخر في الإسلام؟

لا خلاف بين المسلمين على أن القرآن الكريم كتاب الهداية الأول على وجه الأرض. فيه الآيات البينات الواضحة التي لا يمكن التنازع حول معناها مهما تملكت نزعة المجادلة عقول بعض المتشككين. وهذه الآيات مبثوثة في ثنايا كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كلها تقول للإنسان، بوضوح كامل إن أول وأهم وأعظم ما يطلبه الخالق من عبيده ومخلوقيه هو أن يؤمنوا به ويعبدوه لا يشركوا به شيئاً.

السياسة مهمة، والاقتصاد مهم، والعمل الخيري مهم، لكن القرآن الكريم واضح تماماً في ترتيب الأولويات، ولا يستطيع أحد أن يعتذر بأنه لم يفهم ما طلبه الله من عباده؛ لأن الطلب واضح ومتكرر بأكثر من وجه وعبارة، وخلاصته في الآية ٢٥ من سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ والآية ٥٦ في سورة الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾.

وكل من يقرأ قصص الأنبياء في القرآن الكريم يجد أن الله عز وجل كلف جميع أنبيائه ورسله أن يطلبوا من الناس عبادة الله وحده، وألا يشركوا به شيئاً، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما ورد من قصص الأنبياء في سورة هود.

الدليل القاطع من سورة النساء

كما أنه من غير الممكن تجاوز المعنى الضخم والكبير في الآيتين العظيمتين من سورة النساء. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٨). كما يقول أيضا في السورة نفسها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ (النساء: ١١٦).

كتب التفسير المشهورة متفقة تقريباً في القبول بالمعنى اللغوي الظاهر في الآيتين الكريمتين. قال الإمام الطبري في تفسيره للآية ٤٨ من سورة النساء: عَنْ عَبْد اللَّه بْن عُمَر أَنَّهُ قَالَ : «لَمَّا نَزَلَتْ هَذه الْآيَة : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣)، قَامَ رَجُل فَقَالَ: وَالشِّرْك يَا نَبِيّ اللَّه . فَكَرِهَ ذَلِكَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

تفسير الطبري والقرطبي للآية ٤٨ من سورة النساء

ويضيف الطبري: «حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن خَلَف الْعَسْقَلانِيّ ، قَالَ : ثنا آدَم ، قَالَ : ثنا الْهَيْثَم بْن حَمَّاد ، قَالَ : ثنا بَكْر بْن عَبْد اللَّه الْمُزَنِيّ ، عَنْ ابْن عُمَر ، قَالَ : كُنَّا مَعْشَر أَصْحَاب النَّبِيّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ- لا نَشُكّ فِي قَاتِل النَّفْس ، وَآكِل مَال الْيَتِيم ، وَشَاهِد الزُّور ، وَقَاطِع الرَّحِم ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فَأَمْسَكْنَا عَنْ الشَّهَادَة . وَقَدْ أَبَانَتْ هَذِهِ الآيَة أَنَّ كُلّ صَاحِب كَبِيرَة فَفِي مَشِيئَة اللَّه ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ عَلَيْهَا مَا لَمْ تَكُنْ كَبِيرَة شِرْكا بِاَللَّهِ» .

أما القرطبي فاشار في تفسيره إلى ما يأتي:

رُوِيَ أَنَّ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ تَلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ (الزمر: ٥٣)، فَقَالَ لَهُ رَجُل : يَا رَسُول اللَّه وَالشِّرْك! فَنَزَلَ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾. وَهَذَا مِنْ الْمُحْكَم الْمُتَّفَق عَلَيْه الَّذِي لا اِخْتِلاف فِيهِ بَيْنَ الأُمَّة. (انتهى النقل)

يمكن الاستدلال بالآيتين الكريمتين على كل من يقدم في الإسلام أمراً على أمر التوحيد، فمن قال إن السياسة أعظم أمر في الدين أجيب بهاتين الآيتين، ومن قال إن منكر الإمامة مخلد في النار يكون الرد عليه بهاتين الآيتين، ومن قال إن إعادة الخلافة أعظم أركان الدين يكون الرد عليه أيضاً بهاتين الآيتين.

أدلة من سورة هود

وقد تطرق القرآن الكريم مرات كثيرة إلى موضوع التوحيد وبيَّن أهميته ومكانته العظمى عند خالق الخلق سبحانه وتعالى.

أرجو من جميع القراء الكرام التوقف لحظات للتأمل في الآيات الأولى من سورة هود عليه السلام، ودراسة ما فيها من معان عظيمة.

يقول الله تعالى في سورة هود:

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

سورة هود سورة مكية، نزلت بعد سورة يونس، ومن قبلهما نزلت سورة الإسراء، كل هذه السور نزلت وحياً على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصعب مراحل الدعوة الإسلامية. كان النبي صلى الله عليه وسلم مستضعفاً مضطهداً من قبل القوى المتنفذة في مكة المكرمة، وزاد من معاناته وفاة زوجته النبيلة الكريمة خديجة أم المؤمنين، وعمه الشهم الشجاع أبي طالب، وكذلك كان أصحابه مستضعفين مضطهدين.

كان المتسلطون من قادة قريش يضيقون على المسلمين أشد

التضييق، ويصادرون منهم حقوقهم المشروعة في حرية الاعتقاد وحرية العبادة، ولم يكن للمسلمين دولة تتبنى مطالبهم وتهب لنصرتهم، كانت عدتهم الوحيدة لمواجهة هذا الظلم الكبير هو إيمانهم بالله وثقتهم بأنهم على الحق، سائرون على الدرب المنير الذي سار فيه من قبلهم إبراهيم وموسى وعيسى وسائر الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم وأتباعهم، من قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم وينزل عليه الوحي خاتماً للنبيين.

الأساس المتين

إن كانت هناك من ظروف تبرر المساومة على العقيدة، فإن ظروف المسلمين في مدة نزول سورة هود قد تبدو لبعضهم ظروفاً قاهرة تبرر التنازل والمرونة.

لكن القرآن الكريم ينزل بالحق المبين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا مساومة فيه ولا تنازل، فالأمر أعظم من أن يقبل أي نوع من أنواع المساومة؛ لأنه يتصل بالحقيقة الكبرى والعظمى والمهمة في حياة البشرية، وفي الكون كله منذ بدء الخليقة إلى نهايتها.

أيها الناس، هكذا معنى الخطاب القرآني الكريم لبني آدم كافة في الآيات الأولى من سورة هود، أيها الناس في القرن الميلادي السابع، وفي كل قرن يأتي من بعد، لقد نزل عليكم قرآن من عند الله الحكيم الخبير، قرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مرتب محكم لا خطأ فيه ولا نقصان، مبوب مفصل لكم؛ لكي تفهموه وتتعظوا به،

ولكي تقوم عليكم الحجة فلا يتعلل أحد بعد اليوم أنه جاهل أو لم يصله الخبر.

أيها الناس، هكذا معنى الخطاب القرآني الكريم لبني آدم كافة في الآيات الأولى من سورة هود، إن هذا القرآن المحكم المفصل، الذي أوحى به الحكيم الخبير لنبيه صلى الله عليه وسلم، يرشدكم، ويأمركم، ويدلكم على ما فيه صلاحكم وسعادتكم، ورأسه وسنامه: ألا تعبدوا إلا الله.

هذا هو الأساس؛ لا تشركوا بالله شيئاً، لا تعبدوا مع الله إلهاً آخر، ولا تجعلوا بينكم وبينه وسيطاً.

النذير البشير

وتبين الآيات الأولى من سورة هود حقائق إضافية مهمة جداً في عقيدة الإنسان المسلم، إنها تخاطب أهل الكرة الأرضية كافة في كل عصر: اعبدوا الله وحده لا شريك له، واقبلوا التوجيه والنصيحة من مبلغ الخطاب، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، لأنه النذير البشير، الله تعالى اصطفاه واختاره لهذه المهمة العظيمة السامية، فصدقوه ولا تكذبوه.

وهذا هو الأساس الثاني الذي تدل عليه الآيات: الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم تقول الآيات للناس: أما وقد وصلكم هذا الخبر اليقيني الصحيح، فبادروا إلى التوبة، وأقلعوا عن الشرك، وأبشروا بفضل الله وعطائه، فإن كذبتم وأعرضتم، فاعلموا أن الله توعد كل من يشرك

به بالعذاب في يوم كبير، هو يوم القيامة، وتيقنوا أنكم عائدون إلى ربكم، راجعون إليه في نهاية المطاف، وأن يوم الحساب آت لا ريب فيه. واحذورا أن يظن أحد أنه مفلت من ذلك اليوم؛ لأن الله على كل شيء قدير، وسيجمع الناس ليوم الحساب، ذلك أمر لا ريب فيه ولا شك.

وهنا ركنان آخران من أركان الإيمان الصحيح:

الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بأن الله على كل شيء قدير، أي أن قدرته مطلقة، وأمر الخلق كله إليه سبحانه، يقول للشيء كن فيكون. ومن أشهر الأحاديث النبوية الشريفة التي تشرح معنى الإيمان بأن الله على كل شيء قدير حديث رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنه وعن أبيه. قال: كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: «يا غلام! إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء إلا قد كتبه الله عليك. جفت الأقلام ورفعت الصحف». (تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٩٥٧ في صحيح الجامع، والرابط في شبكة الإنترنت:

http://www.muslim-programers.com/hadeeth.htm

أدلة من سورة الزمر

وفي سورة الزمر، عرض واضح آخر لما هو مطلوب من نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- ومن كل مؤمن برسالته، عرض لا غموض فيه

ولا التباس: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ (١١-١٥).

ثم ورد في السورة نفسها قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾. (٦٤-٦٦)

دليل من سورة طه

ومن أعظم ما يبين مكانة التوحيد في القرآن الكريم خطاب ربنا عز وجل لسيدنا موسى عليه السلام عندما وصل إلى الوادي المقدس طوى، الخطاب العظيم الجليل الذي تضمنته سورة طه:

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾.

أي خطاب أعظم وأوضح وأفصح من هذا لتأكيد ما يطلبه المولى عز وجل من عباده وما أرسل الأنبياء لبيانه، قال ابن كثير: «هَذَا أَوَّل وَاجِب عَلَى الْمُكَلَّفِينَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ لا إِلَه إِلا اللَّه وَحْده لا شَرِيك لَهُ. وَقَوْله ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾ أَيْ وَحِّدْنِي وَقُمْ بِعِبَادَتِي مِنْ غَيْر شِرْك».

دليل من الحديث الصحيح للنبي صلى الله عليه وسلم

ولقد عبر نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- عن هذه المعاني الجليلة الواضحة في حديث شريف أخرجه الإمامان البخاري ومسلم، وهذا لفظه في صحيح البخاري:

«حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا همام، حدثنا قتادة، حدثنا أنس ابن مالك، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بينا أنا رديف النبي -صلى الله عليه وسلم- ليس بيني وبينه إلا أخرة الرحل فقال: يا معاذ ابن جبل. قلت: لبيك رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ. قلت: لبيك رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ. قلت: لبيك رسول الله وسعديك. قال: هل تدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل. قلت: لبيك رسول الله وسعديك. فقال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق العباد على الله أن لا يعذبهم".

أتخيل أن بعض قراء هذه الرسالة من المتشككين في دوافعها ونتائجها المحتملة سيقولون بعد قراءة هذه النصوص والأدلة: ما جئتنا بجديد، نعرف هذا كله، ورثنا التوحيد أباً عن جد، وجيلاً من بعد جيل، فما مبرر تكرار الحديث عنه، وكيف يجوز استخدام ما أوردته من نصوص وأدلة لنقد جماعة الإخوان المسلمين، أو حزب التحرير، أو لمن يرون الإمامة من أعظم أركان الدين، من تركها خرج عن الدين؟

سؤال مشروع، جوابه المختصر أنه لا يكفي التسليم العام المجرد بأهمية التوحيد، وإنما ينبغي بذل الجهد لمعرفة أهم مقتضياته، ثم ينبغي إيلاؤه المكانة التي أولاها له رب العباد في محكم التنزيل.

ويأتي التفصيل في الفصل الآتي إن شاء الله تعالى.

obeikandl.com